الجسد عند سبينوزا

الروح والجسد من خلال كتاب "الاخلاق"

بن سعدية سعاد سنة ثالثة دكتوراه فلسفة

جامعة مستغانم– كلية العلوم الاجتماعية – شعبة الفلسف

عندما صاغ الفيلسوف الديكارتي سبينوزا Baruch Spinoza - (1632-11-24/ 1677-02-21) وهو فيلسوف هولندي – كتابه "الاخلاق[1] " l ethic"، واحدة من أحدث القضايا في كتابه الاخلاق، وهي القضية 39 من الجزء الخامس «من كان جسمه يملك عددا كبيرا جدا من الاستعدادات، كان الجزء الاعظم من نفسه أزليا» اذا ما قارنا هذه القضية مع ما قيل عن وحدة العقل البشري والجسم في الجزء الثاني وجدناها واضحة ومُعبرة أكثر، فمن لديه جسم قوي لديه روح مساوية لهذا الجسم في القوة وبالتالي ازلي، فإذا كان هدف الانسان النهائي هو الخلاص، فإن الخلاص لا يتحقق لنا بمعزل عن الجسد الانساني فالبنسبة لسبينوزا لا يمكننا التفكير في الروح دون تناول الواقع المادي للانسان.

استطاع سبينوزا في كتابه هذا اخلال التوازن في المنطق الثنائي الذي كان يحكم العصر الحديث مع ديكارت، حيث كان الوجود مقسم الى خالق وعالم مخلوق، نفس وبدن، فمنح للوجود وحدته، فاصبحت الطبيعة والله شيئا واحدا، والنفس والجسد كذلك، فنحن في هذه الصفحات اردنا عرض موقفه من النفس والبدن والله والطبيعة من خلال مؤلفه الاخلاق

كيف أعاد سبينوزا للوجود وحدته؟ وكيف تجاوز ثنائية الروح والجسد الديكارتية؟ وكيف تحقق هذه الوحدة الخلاص للإنسان؟

كتب ديكارت التأملات للتمييز تمييزا كليا بين الفكر والجسم أو بين النفس والجسد، لكنه أدرك فيما بعد ضرورة بيان العلاقة بينهما، لأن الانسان موجود كنفس وجسد لذلك كان عليه أن يضع مسألة علاقة النفس بالجسد على مستوى آخر لا يكون متناقضا مع نتائج التأملات ولكنه يكون مكملا له.

عندما انهى ديكارت التأملات خلص إلى « أولا أنّه موجود كفكر، ثانيا أنّ ماهيته فكرية، ثالثا أنه جوهر مستقل، رابعا جوهر مستقل لكن متناهي، خامسا أنه متناهي لأنّه وجد من طرف فكر لا متناهي وسادسا أن هذا الجوهر المتناهي المستقل البسيط موجود في علاقة ما مع الجسد و ذلك عن طريق الشعور بالجسم»[2]. لذلك كان عليه ان يجد مصوغا لهذه العلاقة التي تربط النفس بالجسد، فانطلق فيه من فردية الانسان، ساعيا ليبين علاقة الامتداد مع الفكر في الانسان فقط فهو لا يبحث عن علاقة الجسم بالنفس لفهم الكائنات الاخرى – كما هو الحال مع ارسطو وسبينوزا ولا يبنتز– بل عند الانسان فقط.

فيما بعد في الانفعالات نجد ديكارت يريد أن يُفسر لا علاقة النفس بالجسد فقط، بل علاقة الجسد بالنفس، فعندما نعتبر الانسان وحدة بين النفس والجسد يمكن أن ننظر اليه من زاويتين اثنين،:« إما من زاوية تأثير النفس

على الجسد، وهذا يبين عند ديكارت فعل الارادة التي يقول عنها في التأمل الرابع أنها الشيء الوحيد اللامتناهي في الانسان وتجعله أشبه بالله وأما من زاوية تأثير الجسد على النفس فيعطينا الانفعالات»[3] يعتبر ديكارت – في التأملات – الفكر جوهر مفكر، مستقل بذاته لا يحتاج للجسد كي يوجد كفكر، بل اعتبره جوهرا واضحا ثابتا متميزا عن الجسد، لذلك نكتشفه قبل الجسد.

واجه ديكارت مشكلة في بيان حقيقة العلاقة بين النفس والجسد، بعد أن فصل بينهما، لكن سبينوزا لم يفصل بينهما منذ البداية لذلك لم يواجه أي مشكلة، فهما بالنسبة له كيان واحد، لا ينقسم إلى جوهرين متمايزين فقال « لا تدرك النفس ذاتها إلا بإدراكها لتفاعلات جسمها» [4]

يحيلنا المنطق اللاهوتي الأنطولوجي لسبينوزا الى معرفة ماهية الوجود الانساني بصفة عامة، والوجود الجسدي له بصفة خاصة، لان رفضه لثنائية الروح والجسد، والقول بالوحدة بينهما منبعه اساسا رفض ثنائية الله والطبيعة والقول بالوحدة بينهما، فبالنسبة له الوجود الالهي والوجود الطبيعي واحد، أي أنه وحد بين الله والطبيعة وجعلهما جوهرا واحدا، وهذا ما سعى إلى اثباته في الفصل الاول من كتاب الاخلاق، فالله جوهر يضم الطبيعة حيث يرى سبينوزا أن الله جوهر لا يستمد وجوده من غيره وهذا حسب القضية القائلة أن «أعني بالجوهر ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته»[5] وكون الله جوهرا يجعله علة ذاته وعلة الاشياء جميعا وبالتالي فبما ان الله والوجود العيني شيء واحد فانه ليس علة مفارقة.

يعني سبينوزا دائما بكلمة الجوهر الطبيعة والله معاً. فهو يتصور ان الطبيعة والله هما وجهان لنفس العملة. أي ان كل الاشياء تتألف من طبيعة الله الخالدة اللانهائية، فيرى هناك طبيعة فعالة لها القابلية للخلق والابداع وهناك الطبيعة المخلوقة التي تشكل عالم المادة وما تحتوي من المخلوقات مثل الغابات والانهار والنبات كل الاشياء الموجودة في الطبيعة. هكذا يصل الى المرحلة النهائية ليرى الكون والطبيعة كلها تشكل الجزء الفعال اي قوة فاعلة التي يسميها الله، وفيها اشياء مخلوقة وهي اعراض الاشياء او المواد الموجود في العالم.

يستهل سبينوزا كتابه "الاخلاق" بالبحث في طبيعة الله، فقد جاء الجزء الاول تحت عنوان "في الله"، لذلك اذا اردنا البحث في علاقة الجسد بالروح كان علينا ان نعرج على تلك الطبيعة، من خلال القضايا التالية:

القضية 11ج1 «الله_اعني جوهرا يتالف من عدد لا محدود من الصفات تعبر كل واحدة منها عن ماهية ازلية و لا متناهية _ واجب الوجود»[6]

القضية 14ج1 «لا يمكن ان يوجد اي جوهر خارج الله ولا ان يتصور» [7]

القضية 15ج1 «كل ما يوجد انما يوجد في الله ولا يمكن لاي شيء ان يوجد أو ان يُتصور بدون الله »[8]

القضية 34ج1 «قدرة الله عين ماهيته»[9]

القضية 1 ج2 «التفكير صفة لله أي أن الله شيء يفكر» [10]

القضية 2 ج2 «الامتداد صفة لله أي أن الله شيء ممتد» [11]

الله بالنسبة له سبب ذاته لا متناه مطلق وهو الجوهر الوحيد، علة ذاته، يحتوي على عدد لا متناه من الصفات غير المتناهية، وهو غير محدود، وأن الفكر والامتداد صفتان لله، بالاضافة إلى عدد لامتناه من الصفات والاحوال، وأن قدرة الله مساوية لماهيته، وأن الانسان لا يعرف من هذه الصفاة سوى صفتي الفكر والامتداد، وهو علاقة بين هاذين الضربين وهو ليس جوهرا متميزا.

يصرح سبينوزا في البديهية 2 ج2 بان «الانسان يفكر»[12] ، لكن الفكر عنده ليس ماهية وإنما هو مجموعة من الأفكار- على عكس ديكارت الذي يرى أن الفكر هو ذات مفكرة- فالانسان بالنسبة له قد يُفكر وقد لا يفكر، لان الفكر لا يحدد ماهيته، لذلك بالنسبة له المجنون والطفل انسان ايضا.

يرى سبينوزا ان علاقة النفس بالجسد علاقة توازي بين ضربي الفكر والامتداد فبالنسبة له لا النفس تؤثر في الجسد ولا الجسد يؤثر في النفس، نظرا لعدم وجود علاقة سببية بين الصفات، هذا ما يتضح من القضية 2ج3 « لا الجسم يستطيع أن يدفع النفس إلى التفكير، ولا النفس تستطيع أن تدفع الجسم إلى الحركة أو السكون أو إلى أي حال آخر»[13] لانه لا يمكن لاي حال ان يؤثر في صفة اخرى غير التي ينتمي إليها.

يقول سبينوزا في القضية 7 ج2 « نظام وتسلسل الافكار هو نفس نظام وتسلسل الاشياء»[14] ف، هذا القول يُعبر عن التوازي والعلاقة الطردية بين سلسلة انفعالات الجسم وسلسلة افكارها، فبالنسبة له هناك تأثير متبادل بين الجسد والنفس لكن هذا التأثير ليس مباشرا، ولا يتعدى كونه تطابق او تناظر بين حالين اثنين،هما في الواقع شيء واحد، فالتجربة مثلا توضح لنا ان الفرح الباطني يتضح من خلال دقات النبض، هذا ما عبر عنه سبينوزا بقوله في القضية 11 ج3 «كل ما يزيد من قدرة الجسم على الفعل أو ينقص منها ويساعدها أو يعوقها، انما فكرته تزيد من قدرة النفس على التفكير أو تنقص منها وتساعدها أو تعوقها»[15]

في القضية 1 ج5، يقول سبينوزا« بقدر ما تكون أفكار الاشياء وصورها الذهنية منظمة ومترابطة في النفس، تكون انفعالات الجسم، أعني صور الاشياء، على نفس النظام والترابط في الجسم»[16] فالتوازي هنا بين الافكار والانفعالات متبادل، في الاول قلنا أن نظام الأفكار وترابطهما هو نفسه نظام الاشياء وترابطهما كذلك خلص سبينوزا إلى ان نظام الاشياء وترابطهما هو نفسه نظام الافكار وترابطهما، فلا يمكن تصور الجسم بمعزل عن عن الفكرة "اي النفس" فانفعالات النفس هي نفسها انفعالات الجسم، والعكس بالعكس.

كذلك علينا الاشارة الى ان النفس لا تعي نفسها بمعزل عن جسدها، غلا واسطة تمكن النفس من معرفة جسدها سوى هذا انفعالات وافكار هذا الجسد، هذا ما تثبته القضية 13 ج .2 « النفس لا تعرف ذاتها إلا من خلال إدراكها لأفكار تأثرات الجسم»[17] فالنفس لا تدرك ذاتها الا بادراكها لتأثرات وانفعالات جسمها، وذلك يعود الى كون « النفس هي فكرة الجسم»[18]كما جاء في القضية11 ج2، لذلك فالجسم يمثل الارضية الوجودية للنفس، فالنفس تعي جسمها ككل لكن معرفتها لاجزائها غير تامة وانما هي معرفة جزئية، خاصة اذا كانت تتفاعل اجزاء من الجسد ولا تؤثر في الصورة العامة له، هذا ما تبينه القضية 24 ج2 « النفس البشرية لا تنطوي على المعرفة التامة للاجزاء المؤلفة للجسم البشري»[19]، كذلك يضمن الجسم للنفس الوعي بالعالم الخارجي، وهذا

ما تبينه القضية26 ج2 «ادراك النفس للاجسام الخارجية المؤثرة في جسمها الخاص يخبرها بالاجسام الخارجية وباحوال جسمها في نفس الوقت»[20] بنفس الطريقة التي تعي بها النفس ذاتها من خلال انفعالاتها وتاثرات جسمها، فالوعي بالجسم هو وعي ايضا بعلاقة هذا الجسم بالاجسام الخارجية، لان انفعالاته تنتج عن طبيعة الاجسام الخارجية بنفس القدر الذي تنتج فيه عن جسمه.

بما أن الانسان لا يعرف سوى صفتين هما الفكر والامتداد، وبما أنه علاقة بين هاذين الضربين الموازيين لهاتين الصفتين وهما الروح والجسد، وبما أن كل صفة ليس لها علاقة سببية بالصفات الاخرى، فلا الجسد يؤثر في النفس ولا النفس تؤثر في الجسد، فما هو مادي لا يؤثر سوى على ما هو مادي لا يؤثر سوى على ما هو مادي وما هو عقلي لا يؤثر سوى على ماهو عقلي.

بالنسبة لسبينوزا التوازي بين الضربين هو توازي انطولوجي، أي أن لكل ضرب من كل الصفات نفس القيمة الانطولوجية، وليس هناك ضرب اسمى من ضرب، هذا التوازي يحتم علينا عدم تفضيل ضرب على الضروب الاخرى، فهناك تطابق بين النفس والجسد، فلا النفس اسمى من الجسد ولا هو اسمى.

كذلك يتوازى الجسد والنفس على مستوى الماهية، فبما ان هناك تطابق بين كل ضرب من ضروب ضفة، مع كل ضرب من ضروب صفات اخرى، فالنفس جسد منظور له من جهة الفكر، والجسد نفس منظور لها من جهة الامتداد.

تتوازى كل من النفس والجسد على مستوى القوة والفعل، بما ان كل ضرب ليس له علاقة سببية بالضروب الاخرى، فلا النفس تستطيع التأثر بالجسد، ولا الجسد يؤثر في النفس، ففعل النفس ليس هو فعل الجسد.

وهكذا نصل ألى أن الروح والجسم هما في الواقع شيء واحد، تارة ننظر له من صفة الامتداد وتارة من صفة الفكر، لذلك نجد تطابق بين نظام وأفعال الجسم ونظام وافعال الروح، أي ان أي انفعال هو انفعال للجسد والروح معا، وان السببية الحاكمة للتفاعلات النفسية هي ذاتها السببية الحاكمة للتفاعلات الجسدية.

ذكرنا سابقا القضية 2 ج 2، ولاحظنا أن سبينوزا جعل من الامتداد صفة من صفات الله، الى جانب صفة الفكر مع باقي الصفات الاخرى، فرفع من قيمة الامتداد أو المادة إلى الى المستوى الالهي المكون لطبيعته، غالقا الباب امام أي تصور يجعل من الروح سامية ومن الجسد ادنى وادنس.

سبينوزا بجعله الروح والجسد شيء واحد، قضى على مشكلة ثنائية الجسد والروح، لان كونهما شيء واحد يعصمه من الوقوع في الاشكالية التي وقع فيها ديكارت، فبالنسبة له قوة الروح من قوة الجسد، وقوة الجسد من قوة الروح، على عكس ديكارت الذي كان يرى ان ضعف الروح يقوي الجسد، وقوتها مضعفة للجسد.

يرى سبينوزا ان الانسان عبارة عن رغبة في البقاء، هذه الرغبة نجدها في الروح كما في الجسد، واننا نكون فاعلين بالجسم والروح معا وعندما نكون منفعلين انما ننفعل بهما معا، على عكس ديكارت الذي قال اننا نكون فاعلين اذا اثرت الروح في الجسد، ومنفعلين اذا حصل العكس.

هنا يظهر الكونتاوس كمفهوم وك « مبدأ الحياة أكثر من مبدأ للحركة الآلية، إنه مفهوم سبينوزي، رغم أنه ينتمي إلى معجمية العصر المألوفة»[21] فعلى الرغم من شيوع هذا اللفظ فان سبينوزا اضفى عليه صبغة خاصة فأصبح معه نزوع للكائن الى الاستمرار في كيانه هذا النزوع هو الجهد الطبيعي أو التوجه الذي يحافظ به كيان على ذاته، في هذا تقول القضية 7 ج3 « الجهد الذي يبذله كل شيء لكي يستمر في كيانه لا يعدو أن يكون غير ماهية ذلك الشيء الفعلية »[22] والمحافظة على الذات في الاساس هي محافظة على الجسد، فهذا النزوع بالنسبة له ليس غريزة طبيعية نحو البقاء، وانما هي السعي المستمر في الوجود عن طريق القوة، فالافعال المعرفية للنفس بالنسبة له تهدف الى زيادة قدرة الجسد.

الكونتاوس اذن هو الماهية الفعلية للكائن البشري، الذي يسعى بكل قوته للبقاء، ومقاومة كل ما من شئنه ان يهدد وجوده، هذا الجهد والسعي نحو البقاء في الواقع هو من عند الله لان القضية 24 ج2 تقول « الله ليس فقط علة وجود الأشياء في بدايتها، بل هو ايضا علة استمرارها في الوجود»[23] فالقوة التي بثت في الانسان رغبته في البقاء تنبع من عند الله بالضرورة

بما أن سبينوزا جعل من النزوع نحو البقاء هدفا لكل من النفس والجسد، فإنه بذلك ينفي بقاء النفس بعد فناء الجسد، لان وظيفة النفس الاساسية هي الحفاظ على الجسد، ومتى لم تستطع المحافظة عليه حدث فناء الجسد، وتكون بذلك مهمتها انتهت فلا داعي لبقائها، فهو يرفض القول بخلود النفس وبقائها حية واعية بعد فناء الجسد، ولا كون النفس تستمر زمنيا بعد فناء الجسد، لانه لا يلحق الاستمرار الزماني بالعقل الانساني إلا اذا كان الجسد حيا، لكن هذا لا يعني ابدا انه ينفي فكرة الخلود، وانما يرفضها بهذا المفهوم التقليدي، فهو يعطي للخلود معنى جديد، خلود في هذا العالم وليس في العالم الاخر، وهذا ايضا لا يعني أن الانسان يستمر في الوجود في هذه الحياة الى الأبد، وانما يعني بالخلود مشاركته في اللاتناهي الالاهي، وفي صفاته اللامتناهية، فبقدر ظهور هذه الصفات في الانسان، بقدر مشاركته في اللاتناهي الالاهي، والذي يأتي عن طريق معرفة وتأمل الحقائق الخالدة.

يذهب سبينوزا للقول بان شيئا ما من العقل يبقى بعد فناء الجسد، لانه لا يمكن للعقل ككل البقاء، والا وقعنا في مغالطة، وإنما يقول ببقاء جزء فقط، هذا الجزء لا متناهي وازلي منذ البداية، وهو غير شخصي او فردي، لذلك سبينوزا لا يعترف بالخلود الفردي، وإنما بخلود النوع، اي بخلود العام والكلي والمطلق في كل العقول، فهو القائل في القضية 23 ج5« العقل الانساني لا يمكن أن يفنى بإطلاق مع الجسد، اذ يبقى منه شيء ما وهو خالد»[24] فعقل الانسان جزء من العقل الالاهي، لذلك فهو لا يفنى، علينا أن نشير إلى أن سبينوزا بابعاده صفة الخلود الزماني عن النفس، انما يعطي للخلود صفة اللازمانية، فالخلود عنده ليس ما يستمر في الزمان الى ما لا نهاية، وانما هو ما لا يخضع للزمان ولا يندرج تحته.

الهوامش:

1. استعمل سبينوزا المنهج الهندسي في كتابه الاخلاق، فقد تضمن تعريفات، بديهيات، مصادرات وحواشي، قضايا وبراهين... مثل ما يوجد في كتب الهندسة
2. جنيفياف رودليس لويس، ديكارت والعقلانية،مرجع سابق ص 54
3. العقلانية الديكارتية، 156.
4. Spinoza ,l'ethique,traduite par saisset 1842 ,p34
5. سبينوزا، علم الاخلاق، تر: جلال الدين سعيد، التعريف الثالث ج1، دار الجنوب للنشر، تونس، ص 30
6. المصدر نفسه، ص40
7. المصدر نفسه، ص 45
8. المصدر نفسه، ص46
9. المصدر نقسه، ص74
10. spinoza, l'ethique, op cit,p23
11. Bid , p23
12. سبينوزا، علم الاخلاق، مصدر سابق، بديهية 2 ص 87.
13. المصدر نفسه، ص 163.
14. spinoza, l'ethique, op cit ,p24
15. سبينوزا، علم الاخلاق، مصدر سابق، ص 174.
16. المرجع نفسه، ص357
17. spinoza, l'ethique, op cit ,p43
18. bid, p27
19. سبينوزا، علم الاخلاق، مصدر سابق، ص 122
20. bid P31,
21. فاطمة حداد الشامخ، الفلسفة النسقية ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا، تر: جلال الذين سعيد، دلر سيناترا، تونس، 2008، ص36
22. spinoza, l'ethique,op cit ,p52
23. فاطمة حداد الشامخ، الفلسفة النسقية، المرجع نفسه، ص 39
24. spinoza, l'ethique, op cit ,p123